العرب
الثلاثاء 2020/08/04
السنة 43 العدد 11779

في ذكرى احتلال الكويت... عودة الغباء

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

يبقى الاحتلال العراقي للكويت في الثاني من آب – أغسطس 1990، أي قبل ثلاثين عاما، أحد أهمّ الأحداث التي شهدتها المنطقة العربية.. وصولا إلى حدث الاحتلال الأميركي للعراق في ربيع العام 2003. غيّر الاحتلال الأميركي للعراق التوازن الإقليمي في المنطقة عن بكرة أبيه. لم يسقط العراق فحسب، بل سقطت سوريا وسقط لبنان أيضا.

لم يكن الاحتلال الأميركي للعراق ممكنا، لو كان في العراق، حتى سنة 2003، عقل سياسي يعرف شيئا عن الموازين الإقليمية والدولية بعيدا عن الانفعال والعشوائية والتصريحات والخطابات الفارغة.

مثلما كانت لدى صدّام حسين مهمّة يبدو أن لبشّار الأسد مهمّة وكلّ ما يمكن قوله مسكين العراق ومسكينة سوريا ومسكين لبنان الذي عليه أن يدفع فواتير رجل يرفض أن يتعلّم

قرأت شخصيا، وأعدت قراءة، محضر اللقاء الذي حصل بين السفيرة الأميركية في بغداد أبريل غلاسبي والرئيس العراقي، وقتذاك، صدّام حسين. ليس في محضر اللقاء بينهما، قبل أيّام من احتلال الكويت، خلافا لما حاول بعض العرب الجهلة الترويج له، أيّ ضوء أخضر أميركي أعطي لصدّام. كان هناك خلاف حدودي له طابع نفطي بين البلدين. دعت غلاسبي إلى تسويته في ما بينهما، مشيرة إلى أن لا رغبة أميركية في التدخل في خلافات بين بلدين عربيين جارين. كيف يمكن لشخص يتعاطى في السياسة فهم ذلك بطريقة توحي أن لا اعتراض أميركيا على احتلال الكويت.

ذهبت السفيرة الأميركية في عطلتها السنوية.. وذهب صدّام حسين إلى الكويت!

بعد ستة عشر عاما على دخوله الكويت، أُعدم صدّام حسين أواخر العام 2006. لعب دوره في تغيير المنطقة والعراق نحو الأسوأ. كان في استطاعة الأميركيين التخلّص منه سريعا. كانت طريق بغداد مفتوحة أمام الجيش الأميركي في شباط – فبراير 1991 بعدما تحرّرت الكويت وعادت إلى أهلها. لكنّ الأميركيين فضلوا الانتظار كلّ هذا الوقت من أجل الانتقام. كانت لديهم رغبة في الانتقام من العراق. لم يصبروا كلّ هذا الوقت حبّا بصدّام حسين، بل رغبة منهم في تفتيت العراق بعد حصار طويل لعب دوره في هلهلة نسيج المجتمع وتمزيقه وفي إقامة نظام جديد في العراق.

يتبيّن أنّ هذا النظام الجديد الذي في أساسه وجود "أكثرية شيعية في العراق" وأن العراق "بلد فيدرالي"، ليس من النوع القابل للحياة. وضعت أسس النظام الجديد في مؤتمر للمعارضة انعقد في لندن في كانون الأوّل – ديسمبر 2002 برعاية أميركية – إيرانية. سيظهر قريبا هل سيتمكن رئيس الوزراء العراقي مصطفى الكاظمي، الذي لا ينتمي إلى الأحزاب المذهبية الموالية لإيران في مقدّمها "حزب الدعوة الإسلامية"، من إنقاذ ما يمكن إنقاذه من العراق ومن إظهار أن في الإمكان إعادة الحياة إلى النظام الذي أقامه الأميركيون في 2003.

يبقى أن الاحتلال العراقي للكويت كشف قبل كلّ شيء التماسك داخل العائلة الكويتية. لم يجد صدّام حسين كويتيا حقيقيا واحدا يقبل التعاون معه. أثبت أنّه لا يعرف شيئا عن الكويت الذي حوّله إلى محافظة عراقية. عرف الثلاثي المؤلّف من الأمير الراحل الشيخ جابر الأحمد والشيخ سعد العبدالله الذي كان وليّا للعهد ثم أميرا للدولة قبل وفاته، والأمير الحالي الشيخ صباح الأحمد، أطال الله عمره، كيف تكون إدارة معركة استعادة الكويت.

الأكيد أنّه لولا وجود إرادة كويتية صلبة، من المواطن العادي وصولا إلى الأمير وكبار الأسرة وكلّ كويتية وكويتي، لما تحرّرت الكويت بالطريقة التي تحرّرت بها بدعم عربي ودولي.

لا يمكن في هذا المجال الاستهانة بالدور الذي لعبه الملك الراحل فهد بن عبدالعزيز الذي استوعب سريعا معنى الاحتلال العراقي للكويت وأبعاده على الصعيد الإقليمي، فضلا عن خطورته على كلّ دولة من دول المنطقة.

المفارقة أنّ هناك من تعلّم من تجربة العراق في الكويت وهناك من رفض أن يتعلّم. لو عرف صدّام حسين أن يتعلّم لما كان انتهى تلك النهاية البشعة التي لا تليق برجل تصدّى باكرا للمشروع الإيراني في المنطقة.

في المقابل، عرف حافظ الأسد، الذي كان يحكم سوريا، كيف يستفيد إلى أبعد حدود من الخطأ القاتل لغريمه البعثي في العراق. جعل سوريا جزءا من التحالف الدولي الذي قادته الولايات المتحدة من أجل إلحاق هزيمة بالجيش العراقي في الكويت. كانت المشاركة السورية رمزية، لكنّ مردودها السياسي كان كبيرا، خصوصا في لبنان حيث كان ميشال عون بصفة كونه رئيسا لحكومة مؤقتة يديرها من قصر بعبدا، يراهن على انتصار لصدّام حسين.

بفضل المشاركة، إلى جانب القوات الأميركية في معركة تحرير الكويت، بسط حافظ الأسد سيطرته على كلّ لبنان. سمحت له المشاركة في تحرير الكويت بإخراج ميشال عون من قصر بعبدا.

مؤسف أن بشّار الأسد، الذي ورث سوريا عن والده، لم يتعلّم شيئا، لا من دهاء والده حافظ الأسد ولا من الغباء السياسي لصدّام حسين. لم يتعلّم شيئا أيضا من درس الكويت ومن أن هناك من هو مستعد للصبر عليه ما دامت مهمتّه تفتيت سوريا.. وهذا ما يحصل بالفعل.

متى تنتهي مهمّة بشّار الأسد الذي ارتكب بتغطيته، جريمة اغتيال رفيق الحريري قبل خمسة عشر عاما، جريمة في حجم جريمة احتلال صدّام حسين الكويت؟

ليست لائحة العقوبات الأميركية التي صدرت الأربعاء الماضي، وشملت حافظ بشّار الأسد، سوى دليل آخر على أن الضغوط على النظام السوري مستمرّة وأنّه لن يفلت من العقاب.

مثلما كانت لدى صدّام حسين مهمّة، يبدو أن لبشّار الأسد مهمّة عليه بدوره القيام بها. كلّ ما يمكن قوله مسكين العراق ومسكينة سوريا.. ومسكين لبنان الذي عليه أن يدفع فواتير مترتبة على تصرّفات رجل يرفض أن يتعلّم. لا يريد بشار أن يتعلّم، ولو القليل، من تجربة والده، على الرغم من سيئاتها التي لا تحصى، ولا من تجربة مرّة مثل المغامرة المجنونة لصدّام حسين في الكويت. استعاد بشّار غباء صدّام ونسي دهاء والده.

ردع الصدمة والترويع الإيراني – الأميركي

د. ماجد السامرائي
كاتب عراقي

ليس صحيحاً الاعتماد على الانطباعات الشخصية لتكون مقياسا في الحكم على وقائع تاريخ العراق المعاصر، خاصة في سنوات التردي الحالية، حيث تسود أحكام الكراهية والثأر الذي ينبعث من نفوس مريضة تصلح فقط لإدارة شؤون أرذل أنواع المافيا، وليس حكم بلد كالعراق. رغم ذلك، تنفع الانطباعات، إن صدرت عن مراقبين وشهود ومشاركين في الأحداث، أن تكون دروسها للأجيال العراقية الجديدة، لعلها تتخلص من أدران الواقع المرير الحالي.

كتبت سطور هذه المقدمة السريعة كتعبير عن التزام وطني وأخلاقي بضرورة الابتعاد عن الأحكام الذاتية المسبقة، فيما حصل في العراق خلال نصف قرن من إخفاق السياسيين، خلال الحقبة الزمنية التي تلت سقوط النظام الملكي، في إدارة حكم البلاد، وسيطرة الغرور الفردي والنزعات القبلية وشحنات العنف على عقولهم، وأخيراً امتزاج الفساد وسرقة المال العام بالارتهان للخارج.

أكثر المحطات إيلاماً في حياة العراقيين، قبل ابتلائهم بالقتلة والطائفيين بعد عام 2003، ما واجهوه من مشروع أميركي اختار بلدهم في وقت مبكر، قبل احتلال صدام للكويت 1990، ليكون قاعدة مثالية في قيادة النظام العالمي الجديد، بعد إسقاط دولته بالاحتلال العسكري، وتطبيق طرق أبشع مما عرفته شعوب السلفادور وكولومبيا وبنما وغيرها من بلدان أميركا اللاتينية، في القتل وتعذيب السجناء، بعد أن هيمن على الإدارة الأميركية كبار منظري اليمين المتشدد (ديك تشيني، دونالد رامسفيلد، كولن باول، كونداليزا رايس، بول ولوفيتز، شارل بيرل وزلماي خليل زادة) في ظل حكم بوش الابن، الذي قاد غزو العراق تطبيقاً لنظرية "الصدمة والرعب."

ما شغل عقول زعماء الشر الأميركان هو كيفية استثمار فرص إضعاف العراق، بعد امتلاكه لجيش قوي بتسليح سوفييتي، وثروة وتنمية واعدة وشعب متماسك، فتشاركت قوى اليمين الأميركي مع زعيم النظام الإيراني الخميني، في العمل على إطالة زمن الحرب العراقية الإيرانية 1980 – 1988 التي عمل العراق على وقفها منذ عام 1982، وتؤكد ذلك تصريحات خليل زلماي زادة، المنشورة بأن انتصار العراق في تلك الحرب سيؤدي إلى خسارة فرصة تطبيق المشروع الأميركي في المنطقة.

واستثمر انتصار العراق العسكري في تلك الحرب لصالح مشروع تفكيكه واحتلاله لاحقاً، ولو توفرّت العقلية السياسية القائدة للبلد القارئة للمستقبل بعيدا عن نزعات الزعامة القومية التي أصبحت جزءاً من الماضي، لما أصبحت سياسات صدام حسين إثر انتهاء تلك الحرب، صيداً سهلا بيد أصحاب مشروع تفتيت العراق.

المزاج الفردي وامتزاج غرور الانتصار العسكري بالاستحقاقات الشعبية العراقية لحياة مدنية واعدة، دفع نظام صدام، العاجز عن الإيفاء بها، بعيدا عن العقلانية السياسية، متخذا مواقف متهورة في السياسة الخارجية، مثالها إعدام الصحافي البريطاني، بازوفت، في مارس عام 1990، مستهينا برجاء رئيسة وزراء بريطانيا في ذلك الوقت، مارغريت تاتشر، مما دفعها إلى مباركة الحل العسكري لإخراج الجيش العراقي من الكويت، رغم أنها استقالت قبل ثلاثة أشهر من بدء حرب عاصفة الصحراء عام 1991، التي أحدثت دماراً في العاصمة العراقية، وشكلت مشاهد جثث الأطفال والنساء والمدنيين المتفحمة في ملجأ "العامرية" صدمة في الأوساط العالمية.

لم يستمع صدام إلى صوت العقل والحلول الدبلوماسية. وكشهادة تاريخية حول هذه الأزمة أتذكر، حين كنت سفيراً للعراق في فنزويلا، استدعاني الرئيس الفنزويلي، كارلوس أندريسبيريز، وعرض مبادرة حل سياسي متوازن وقال لي: لديّ تطمينات من قبل واشنطن ودول كبرى لقبول الحل الدبلوماسي، وطلب جواباً على المبادرة. وحين أرسلت البرقية إلى بغداد جاءني جواب رئاسي مقرّع، لأنني لم أذكر للرئيس الفنزويلي بأن "القائد صدام يخوض الحرب ضد أميركا وعملائها في المنطقة". ومعروف أنه رفض أيضاً مبادرة الأمين العام للأمم المتحدة حينها، خافيير بيريز دي كويار، لتجنب الحرب خلال لقائه به في بغداد. كما رفض وزير الخارجية طارق عزيز تسلم رسالة بوش التي حملها بيكر فيما سمي لقاء عزيز- بيكر.

رغم حماقة قرار احتلال الكويت وانفراد صدام باتخاذه، حسبما عرف، إلا أن الأسرة الكويتية الحاكمة تتحمل مشاركة المسؤولية للنتائج الكارثية التي حصلت، وكان يمكن للمال أن يسقط مبررات الغزو، ويجنّب البلدين مئات الضحايا من الأسرى والمفقودين من الأشقاء الكويتيين، وأكثر من مليون ضحية عراقية لما بعد عام 1991، وقد شعر المسؤولون الكويتيون فيما بعد أنهم انتصروا لأنهم ربحوا التعويضات المالية، وربحوا بوابة العراق البحرية، واستغلال ظرف الهزيمة العسكرية العراقية لاستلاب أراض عراقية دون حق، لكن الحكام الكويتيين خسروا ضمانة المستقبل الآمن مع الجار العراقي.

كانت عاصفة الصحراء ليلة السابع عشر من يناير 1991، تدريباً دموياً لما حصل بعدها في مارس 2003، كانت فصول الجريمة الكبرى بقتل الآلاف من الجنود العراقيين وهم في حالة الانسحاب داخل الأراضي العراقية، بما سمي طريق الموت، تنقل مباشرة عبر شبكة الـ"سي. إن. إن" التلفزيونية، ولم يكن مخططو الجريمة ومنفذوها محبين لأهل الكويت وشعبها، بل كانت فرصتهم في تحطيم جيش العراق وقتل الآلاف من العراقيين وتدمير بنية البلد التحتية في الكهرباء والماء والاتصالات، وكان الوقت مبكراً لوجستياً وجيوسياسياً لإسقاط النظام السياسي في بغداد من قبل الأميركان، لعدم تحضيرهم بديلا سياسيا متوافقا مع مشروعهم. فالمعارضة في ذلك الحين يتزعمها خليط وطني قومي عروبي لا زعامة للأحزاب الدينية فيها.

لهذه الأسباب ولغيرها من صفقات ما زالت غير معلنة، حصلت فوضى الجيش والقوات الأمنية العراقية، وفشل مشروع إيران في احتلال العراق من مدن الجنوب، تحت غطاء ما سمي "بالانتفاضة"، وتم تعويض الفشل الإيراني بتنفيذ المجازر الوحشية بقتل الآلاف من الجنود والمنتسبين لحزب البعث، وحصل تدفق للهاربين من الجيش وبعض متطوعي تلك "الانتفاضة" بعد فشلها إلى معسكر "رفحا" السعودي، الذي كان محطة انتظار لتوزيعهم كلاجئين إلى الولايات المتحدة ودول أوروبا، ليتحولوا في عهد القرصنة السياسية والنهب إلى مجاهدين يستلمون رواتب عالية، في حين يعاني خريجو الجامعات العراقية من أطباء ومهندسين وغيرهم البطالة والحاجة.

كانت واقعة الحادي عشر من سبتمبر 2001 الفرصة الذهبية لتنفيذ مشروع "الصدمة والترويع" داخل مكاتب زعيمي اليمين رامسفيلد وكولن باول، الذي أعجب بالمشروع حين قدمه له ضابط البحرية، هارلان أولمان، الذي كشف للصحافة الأميركية، في الأيام الأولى للاجتياح العسكري، عن إعداده ومجموعة من الجنود الذين شاركوا في حرب عاصفة الصحراء عام 1991، لإحداث الصدمة في صفوف الجنود والشعب العراقي، بتنفيذ موجات القتل الجماعي والتعذيب في السجون، من قبل مرتزقة الحرب الوسخة في كولومبيا وجنوب أفريقيا وشيلي، وفضيحة "أبو غريب" مثال واحد من مئات الأمثلة. وقد اكتسبت الأدوات الإيرانية داخل الأجهزة الأمنية وخارجها تلك الخبرات لتواصل مشروع الرعب بحق العراقيين بشكل وقح.

أكثر المحطات إيلاماً في حياة العراقيين قبل ابتلائهم بالقتلة والطائفيين ما واجهوه من مشروع أميركي اختار بلدهم في وقت مبكر قبل احتلال صدام للكويت ليكون قاعدة مثالية لقيادة النظام العالمي الجديد

الصدمة في ميدانها العسكري حققت نتائجها في تدمير دولة العراق وبنيته التحتية، واستكمل بول بريمر، سياسيا، إقامة هيكل النظام الطائفي، باستجلاب الجهلة والمغمورين، فقط لأنهم رفعوا راية "مظلومية الشيعة"، التي تبددت وانكشفت بعد أعوام على يد طلائع شباب الشيعة، في ثورة أكتوبر 2019، التي أسست عناصر الردع للمشروعين الأميركي والإيراني، وشكلت مقدمات النهضة العراقية الجديدة، ولهذا السبب تحارب بشراسة، ممن كشفوا عن هويتهم بصفتهم مافيا تسرق مال العراق، وملأت أرقام النهب صفحات الجرائد ومواقع التواصل الاجتماعي، بعد سبعة عشر عاماً والتي دفع ثمنها شعب العراق، لكن لحد اللحظة لم يتحقق الردع الحقيقي بالقبض على هؤلاء وفضحهم، وإن كان ردع الثوار قادما.